الفقر والفقراء في الكتاب المقدّس
"الغنيّ والفقير يتلاقيان،
فكلاهما صنعهما الربّ" (أمثال ٢٢/٢)

مقدّمة

يتطرّق الكتاب المقدّس إلى مختلف المواضيع التي تهمّ الإنسان، فيَعكس، بأساليب متعدّدة وفنون أدبيّة متنوّعة، طموحاته ومخاوفه، رغباته وهواجسه، إيمانه وتساؤلاته وخطيئته، وكلّ مشاكله بأفراحه وأحزانه وبحثه عن المطلق. ولا شكّ أنّ مسألة الغنى والفقر شَغلت تفكير الناس في مجتمعاتهم، سيّما وأنّ الشرق القديم رَبطها بمفهوم الثواب والعقاب، أو بمعنىً آخر، رُبِط واقع الغنى بالبركة الإلهيّة، بينما أشارت ظاهرة الفقر إلى عدمِ رضى الله.

إنّما، في مجالات أخرى، لم يتوقّف الكتاب المقدّس عند هذه النظرة المحدودة، فيوصي مثلاً العهد القديم باحترام الفقير ومساعدته والاهتمام به، مشدّداً على أنّ "الفقير السالك طريق الكمال خيرٌ من غنيّ طريقه معوجّة" (أمثال ١٩/١). إضافة إلى ذلك، يتجاوز العهد الجديد تلك الحدود كلّها ، عندما يؤسّس يسوع شَرْعة الملكوت السماويّ معلنًا : "طوبى للفقراء" (متّى ٥/٣ ولوقا ٦/٢٠)، لا بل عندما يصبح ابن الله هو الفقير بامتياز، إذ "يُخلي ذاته ويتّخذ صورة العبد" (فيلبي ٢/٧). فكيف يُظهر لنا الكتاب المقدّس تطوّر مفهوم الفقر بالنسبة إلى المؤمن؟ وماذا يُمكن أن تقول لنا اليوم كلمة الله الموحاة؟

القسم الأوّل: الفقر في العهد القديم

يحتلّ موضوع الفقر والفقراء مَرتبةً مرموقة في أسفار العهد القديم. وتتعدّد الألفاظ في اللغة العبريّة لترسم واقع الفقير، فتصفه بالمتسوّل، والشريد، والمحتاج، والوضيع، والمسكين، والذليل المقهور. ولكنّ الفقر الذي يذكره الكتاب المقدّس لا يقتصر فقط على الظاهرة الاجتماعيّة أو الاقتصاديّة، بل يمكن له أيضاً أن يشير إلى موقف باطنيّ أو إلى استعداد الإنسان المتواضع للانفتاح على الله وعلى الآخر، فالفقر يبدو للوهلة الأولى كشرٍّ وعَثار وحالة ممقوتة، لا يفرضها الله ولا يرغب بها البشر. وهذا الوضع يدعو ثانياً الأنبياء وأحبّاء الله إلى الدفاع عن فقراء الأرض والمظلومين، لا بل إلى محاربة العَوز والتهميش واحتقار المساكين. إنّما "فقراء الله" يرتقون بهذه الحاجة إلى المستوى الروحيّ، فيصرخون إلى الربّ منتظرين منه وَحدَه الرحمة والخلاص. سوف نتوقّف على هذه النقاط الثلاث في عرض قراءتنا للعهد القديم.

أوّلًا: الفقر عار وعثار

منذ سِفر التكوين في مطلع الكتاب المقدّس، يبدو الغِنى والإزدهار وازدياد الثروة كعلامة رضى وبركة من قِبل الله، فنرى إبراهيم "غنيًّا جدًّا بالماشية والفضّة والذهب" (تكوين ١٣/٢)، يُعرّف عنه كبير خدمه ووكيل أملاكه قائلاً: "أنا خادم إبراهيم، والربّ بارك سيّدي كثيرًا فاغتنى. أعطاه غنمًا وبقرًا وفضّة وذهبًا وعبيدًا وإماءً وجمالًا وحميرًا " (تكوين ٢٤/٣٥). ويتابع سِفر تثنية الاشتراع بتعميم الفكرة هذه من خلال بركات الربّ على العاملين بالشريعة : "إسمعوا

كلام الربّ إلهكم فتحلّ عليكم جميع هذه البركات وتشملكم : يباركَكم في مدنكم وحقولكم. يبارك ثمر بطونكم وثمر أرضكم وثمر بهائمكم ونتاج بقركم وغنمكم..." (تثنية ٢٨/٣-١٢).

في هذا الاتّجاه، لا عجب أن يُعتبر الفقر عقابًا إلهيًّا أو نتيجة حتميّة للإخلال بعهد الربّ والتخلّي عن وصاياه (تثنية ٢٨/١٥-٢٦)، بل قد يكون الفقر المادّيّ آفة اجتماعيّة نابعة من الكسل والإهمال، كما تفسّر ذلك الكتب الحِكَميّة الباحثة عن الأسباب البشريّة للفقر : "البطّال يتمنّى ولا ينال، والمجتهد ينجح فيغنى" (أمثال ١٣/٤)، "إلى متى تنام يا بطّال، ومتى تقوم من نومك؟... يداهمك الفقر كمُهلكٍ، والخسارة كرجلٍ مسلّح" (أمثال ٦/٩-١١)، وتكثر التأكيدات على وجهة النظر هذه في تفكير صاحب الأمثال، فيكرّر حكمته علّها تترسّخ في أذهان قُرّائه : "من عَمِل بيدٍ مرتخية يفتقر، ومن عمل بيدٍ مجتهدة يغتنِ، من يكنْ عاقلاً يحصد في الصيف، وأمّا المعتوه فينام في الحصاد" (أمثال ١٠/٤-٥)، "البطّال لا يفلح أرضه في الخريف، فيستعطي في الحصاد ولا يُعطى" (أمثال ٢٠/٤)، "لا تحبّ النوم لئلاّ تفتقر، بل افتح عينيك تشبع خبزاً" (أمثال ٢٠/١٣، إلخ).

ليس الكسل السبب الوحيد الذي يقود صاحبه إلى البؤس؛ فعدم قبول النصيحة الصائبة أمر يخلو من الفطنة : "الفقر والهوان لمن ينبذ المشورة، والكرامة كلّها لمن يقبل التوبيخ" (أمثال ١٣/١٨). في الوقت عينه، لا يجهل الكاتب الملهَم أنّ حكمته البشريّة لا قيمة لها إنْ لم تكن وثيقة الصِّلة بمخافة الرب وبالسير في شريعته، "فالفقير خيرٌ من الكذّاب" (أمثال ١٩/٢٢). والأجدر بالإنسان الحكيم العاقل أن يعرف الربّ ولا يُلقي رجاءه لا في غناه ولا في عَوَزه، فيصلّي مع صاحب السِّفر: "يا ربّ، لا تُعطني فقرًا ولا غنًى. بل ارزقني من الخبز ما يكفيني، لئلاّ أشبع فأكفر وأقول من هو الربّ؟ أو لئلاّ أفتقر فأسرق وأدنّس إسم إلهي" (أمثال ٣٠/٨-٩).

الأولويّة إذًا واضحة، والأهمّ لدى الكاتب المؤمن هو أن يشهد لغنى الله ونعمته في أقواله وأعماله وحياته كلّها، فيؤكّد على اختيار طريق الخير والحياة، مهما كان الوضع الاجتماعيّ، رفيع المستوى أم مُزريًا، فيعلن: "اقتناء الحكمة خيرٌ من الذهب، واقتناء الفطنة أفضل من الفضّة" (أمثال ١٦/١٦).

إنّما هذا الاعتقاد السائد قديمًا بأنّ الفقر عار ولعنة ومصيبة يستحقّها الفقير الخاطئ، تَرافَق دومًا في الكتاب المقدّس بتحذير الأغنياء والمقتدرين من استغلال الصغير والضعيف والمسكين. يا لها من مفارقة لافتة : هي مسؤوليّة الملك أوّلاً، ثمّ مسؤوليّة كلّ من يملك السلطة أو المال، في أن يُحامي عن الفقير ويحترم حقوق الأرملة واليتيم، ويُطعم الجائع ويتحاشى الظلم ويتعالى عن استملاك أراضي المعْوزين والمديونين؛ فشعب العهد واحد، ولا يمكن الحفاظ على عهد الله إن كُسِر رِباط التضامن بين الإخوة. وعلى كلّ حال، حمل الأنبياء كلمة الله ليذكّروا شعبهم دومًا بهذه الحقيقة، ممّا يقودنا إلى النقطة الثانية.

ثانيًا: الإحترام الواجب للفقراء

بعد استتباب النظام الملكيّ بدل حكم القضاة، ومن ثمّ انقسام مملكتي الشمال والجنوب بين إسرائيل ويهوذا، إزدادت الفروقات بين طبقات المجتمع شيئاً فشيئاً. فنشأت مجموعات تهتمّ بالتجارة والمصالح الملكيّة على حساب الملاّكِين الصغار أو الفلاّحين المتواضعين، ممّا أدّى بالبعض إلى خسارة أراضيهم لإيفاء الديون المتراكمة بالربى. وقد أشار الكتاب المقدّس إلى هذا الواقع بأدلّة واضحة وبشديد التأنيب؛ فالكثير من الفقراء هم ضحايا جشع الأثرياء الذين يلجأون إلى المضاربة والغشّ، "فينقلون التخوم ويسلبون القطعان، ويستاقون حمار اليتيم، ويرتهنون ثور الأرملة"، كما

يقول سفر أيّوب (٢٤/٢-٣). عن هؤلاء المظلومين والمحرومين دافع الأنبياء بلهجة حازمة وشجبوا تصرّفات المقتدرين، منذرين إيّاهم بتدخّل الديّان العادل لمصلحة المساكين. فيقول عاموس : "هكذا قال الربّ : لأجل معاصي اسرائيل المتكرّرة حكمت حكماً لا رجوع عنه، لأنّهم يبيعون الصِدّيق بالفضّة والبائس بنَعْلين، ويُمرّغون رؤوس الوضعاء في التراب، ويزيحون المساكين عن طريقهم" (٢/٦-٧)؛ فالله لا يرضى الجَوْر على الضعيف ويهدّد، بلسان نبيّه، بجلب الخراب على الأقوياء الظالمين الناطقين بالكذب : "لذلك، بما أنّكم تدوسون الفقير وتأخذون منه ضريبة قمح، فأنتم تبنون بيوتًا من حجر منحوت ولا تقيمون فيها، وتغرسون كروماً شهيّة ولا تشربون خمرها، فأنا عالم بمعاصيكم الكثيرة وخطاياكم العظيمة. تضايقون الصِدّيق، وتأخذون الفِدية، وتحرّفون حقّ البائسين في المحاكم. لذلك يسكت العاقل في ذلك الزمن لأنّه زمن رديء" (عاموس ٥/١١-١٣).

في هذا الإطار ينتقد الأنبياء كلّ هذه الممارسات التي تخالف الشريعة، وتؤلّه المال، وتسحق الضعفاء، فينبري أشعيا يؤكّد أن لا أحد يهرب من دينونة الله وغضبه عندما يظلم الشّعب ويضلّله : "الربّ يدعو إلى القضاء شيوخ شعبه وحكّامهم، فيقول : أنتم الذين نهبتم الكروم، وسلبتم المساكين، وملأتم بيوتكم، ما بالكم تسحقون شعبي، وتطحنون وجوه البائسين؟ يقول السيّد الربّ القدير" (أشعيا ٣/١٤-١٥).

وهذه التنبيهات المستمرّة تبدو من الثوابت النبويّة التي تفضح العنف والكذب واغتصاب الحقوق (حزقيال ٢٢/٢٩)، وتندّد بالظلم واستملاك أراضي الغير (عاموس ٨/٥-٦؛ هوشع ١٢/٨؛ ميخا ٢/٢؛ أشعيا ٥/٨؛ إرميا ٣٤/٨-٢٢)، وتُنكر على عظماء الأرض استعمال السلطة لتحريف العدالة وإحقاق التسلّط للتلاعب بمصالح الصغار في المجتمع.

ومن جهة أخرى، تلتقي كتب الأنبياء مع تعليمات أسفار الشريعة، وخاصّة سفر تثنية الاشتراع الذي يعكس الوضع الاجتماعيّ لإسرائيل في تلك الحقبة، فيحرّم الدَّين بالربى (تثنية ٢٣/٢٠) ويفرض الصدقة والاهتمام بالأرملة واليتيم والغريب (تثنية ١٥/١-١٥). ويطالب بحقوق العامل اليوميّ لئلاّ يُرهن للدائنين الطامعين (تثنية ٢٤/١٢-١٥)، وبالاختصار، توصي كتب الشريعة والأنبياء والحكمة كلّها بالمحبّة والتضامن والاحترام الواجب لكلّ فقير صغير من وضعاء الأرض، لأنّ "من يظلم الفقير يوجّه الإهانة لخالقه، ومن يمجّد الخالق يرحم المسكين" (أمثال ١٤/٣١).

بين موقف الأنبياء العمليّ هذا، وبين الاستعداد للفقر الروحيّ، لم يكن هناك سوى خطوة بانتظار المسيح الآتي يدافع عن البؤساء والفقراء (راجع أشعيا ١١/٤)، فيعلن صفنيا نوعًا من العلاقة بين الفقر الاجتماعيّ والفقر الروحيّ، إذ يدعو ودعاء الأرض إلى التماس الربّ والعمل بأحكامه (صفنيا ٢/٣). ويتكلّم أشعيا الثالث عن "جماعة مساكين الله" بعد العودة من السبي، كما يذكر زكريّا المسيح الوديع المتواضع (٩/٩-١٠)، وذلك يدعونا إلى التأمّل بالنقطة الثالثة.

ثالثًا: الفقر الروحيّ والانفتاح على إرادة الله

إتّضح ممّا سبق أنّ مفهوم الفقر في العهد القديم لا يقتصر على الحاجة الاقتصاديّة أو العَوَز المادّيّ، بل هو أيضًا وضع إجتماعيّ تعبّر عنه اللغة العبريّة بأسلوبها المحسوس البعيد عن التجريد. كما وساهمت أقوال الأنبياء في خَلق منظار روحيّ جديد، يبدو فيه الفقر مثالاً للمؤمن، لا في التخلّي عن أملاكه ومقتنياته بقدر ما هو في الانصياع المحبّ والوديع لإرادة الله، والإنفتاح المتواضع على طرق الربّ؛ فصراخ المساكين يصعد إلى الله (مزمور ٨٦/١) وهو يسمعه (أيّوب ٣٤/٢٨). وكتاب المزامير مليء بالاستشهادات التي ترسم ملامح الفقير كصَديق للربّ وخادم له، يحتمي تحت جناحه بالمخافة والثقة ويقتبل منه الخير والخلاص. ولعلّ من أجمل ما كُتب في هذا الخصوص ما ورد في المزمور ٣٤ : "دعا

بائس والربّ سمعه، ومن جميع مضايقه خلّصه... الأغنياء افتقروا وجاعوا، وملتمسو الربّ ما من خير يعوزهم... الربّ قريب من منكسري القلوب، ويخصّ منسحقي الأرواح..." وكثيرًا ما تُستبدل في العبريّة واليونانيّة الألفاظ الخاصّة بالفقير، لتحمل معاني الضِّعة والوداعة وسلام القلب في العواصف والمِحَن؛ فسِفر المزامير يُلقي الضوء على العلاقة العضويّة بين الفقر والتواضع، ممّا يُضفي على الفقر معنىً روحيًّا يقرّب الإنسان من الله. لذلك يعترف صاحب الكتاب بحقيقة روحيّة عميقة قائلاً : "إنّ الربّ تسامى ونظر إلى المتواضع، أمّا المتكبّر فيعرفه من بعيد" (مزمور ٦/١٣٨).

هذا الفقر الروحيّ يختصر إذًا المسافة إلى الله؛ فالمتواضع ينتظر كلّ شيءٍ من الله ويتّكل عليه. لا يستند إلى قوّة الأقوياء ولا إلى عون المتجبّرين، لا يتباهى بأمواله وأعمالِ يَدَيْه، بل يضع فخره ورجاءه في الربّ إلهه فلا يخيب (راجع مزمور ٩ و ١٠). في ضعفه وبؤسه يستجيب الله صلاته ويمنحه خلاصه (مزمور ٤/١٤٩)، لأنّه يحبّه ويرحمه مشفقًا على بؤسه (أشعيا ١٣/٤٩)؛ فالربّ لا يرذل القلب الوديع المتواضع (مزمور ٥١)، بل يرضى عن هذا الإستعداد الباطنيّ للإصغاء والعمل بكلمته، كما يقول على لسان النبيّ أشعيا: "السماء عرشي، والأرض موطئ قدميّ، فأيّ بيت خير منهما تبنون لي، وأيّ مكان يكون لإقامتي؟ تلك كلّها صَنعَتها يدي وهي لي، لكنّي إلى هذا أنظر: إلى المسكينِ والمنسحقِ الروح وإلى من يخاف كلمتي". (٦٦/١–٢).

هؤلاء الفقراء إلى الله هم البقيّة الباقية التي تبشّر بخلاص الشعب وببناء عالم جديد تسوده الرحمة والعدالة. هم باكورة الملكوت الذي يدشّنه المسيح الآتي شعبًا يعتصم باسم الربّ. وهم باكورة "كنيسة الفقراء" التي قبلت البُشرى السارّة، واختارت المسير على خُطى معلّمها وسيّدها المصلوب والقائم من بين الأموات، المسيح يسوع.

القسم الثاني: الفقر في العهد الجديد

لا شكّ أنّ القراءة النبويّة لموضوع الفقر والفقراء في العهد القديم مهّدت الطريق للوصول إلى نظرة روحيّة، يبدو فيها الفقير الوضيع إنسانًا يطلب الله وملكوته أوّلاً، ينتظر كلّ شيء من الربّ، يسمع كلمته وينفتح لنعمته ويتّكل على رحمته. وبذلك يتنافى مع "أصحاب القلوب القاسية"، كما تصفه مخطوطات قمران. إنّ هذا الفقر الروحيّ يتحقّق ويكتمل في العهد الجديد من خلال تبشير يسوع وحياته؛ فهو بدايةً مسيح الفقراء، ويعلن ثانيًا الطوبى للفقراء بالروح، كما ويوصي ثالثًا بخدمة الفقراء، إخوته الصغار.

أوّلًا: مسيح فقير ومسيح الفقراء

يكشف لنا الإنجيل معالم الاتّضاع في كلّ مراحل حياة يسوع الناصريّ، فهو من فقراء الأرض بامتياز، منذ ولادته في بيت لحم، وترعرعه في الناصرة، مرورًا بحياته العلنيّة حيث كان يجوب المدن والقرى مبشّرًا بالملكوت ومُعترفًا أنّ "للثعالب أوكار ولِطيور السماء أعشاش، وأمّا ابن الإنسان فلا يجد أين يسند رأسه" (متّى ٢٠/٨). وحتّى في دخوله يوم الشعانين إلى أورشليم دخول الفاتحين، لا يأنف يسوع من ركوب جحش ابن أتان، رمزًا للملك الوديع المتواضع الذي سبق وأنبأ به زكريّا (٩/٩). ويبلغ هذا التجرّد ذروته عندما يرفض الابن أن يعتبر مساواته لله غنيمة، بل يُخلي ذاته متّخذًا صورة العبد، ويتّضع مطيعًا حتّى الموت، الموت على الصليب (فيلبي ٢/٦–٨).

على مثال هذا المسيح الفقير، لا يُمكن للتلميذ الأمين إلّا أن يَعي عمق الغنى الروحيّ الكامن في التشبّه به، فيوافق قول الرسول: "وأنتم تعرفون نعمة ربّنا يسوع المسيح : كيف افتقَرَ لأجلكم، وهو الغنيّ، لتغتنوا أنتم بفقره" (٢ كورنتس ٩/٨).

هذا المسيح الذي افتقر طوعًا واختيارًا هو أيضا مسيح الفقراء. أتى من أجل الخطأة والصغار، ومنكسري القلوب، ومَن منّا يستطيع التبجّح أنّه لا ينتمي إلى إحدى تلك الفئات؟ يبدأ يسوع خطابه التأسيسيّ بتطويب الفقراء (متّى ٥/٣ ولوقا ٢٠/٦) ويقيمهم ورثة الملكوت؛ فمريم، أَمَة الربّ الوضيعة، تنشد عظائم الربّ والتزامه بوعوده في تبديد المتكبّرين ورَفْع المتواضعين. ويسوع بنفسه يعلن سنةً مرضيّة لدى الله، يفتتحها بقراءة من نبوءة أشعيا: "روح الربّ عليّ، مسحني وأرسلني لأبشّر المساكين" (لوقا ١٨/٤)؛ فالبشارة تُعلن للفقراء، ولهم يُمنح ملكوت الله (راجع متّى ٥/١١ ولوقا ٢٢/٧). وهم بدورهم يتوافدون إلى يسوع لاقتبال كلمة الخلاص (متّى ٢٥/١١ ؛ يوحنّا ٤٨/٧–٤٩). وإذ يحدّد متّى في العظة على الجبل :"طوبى للفقراء بالروح"، فهو يضعنا أمام تبدّل في النظرة من الفقر المادّيّ إلى الفقر الروحيّ ونوعيّة الحضور أمام الله وأمام الإخوة.

ثانيًا: الفقر الروحيّ

بهذا المعنى، يتطّلب يسوع من تلاميذه موقفًا باطنيًّا، يجمع إلى حالة الوداعة والاتّضاع خَيار التجرّد الداخليّ تجاه الأرزاق والممتلكات، ليكونوا أحرارًا قادرين على اقتبال الغنى الحقيقيّ، فيلفت النظر إلى وجوب تحديد الأولويّة، إذ "لا يقدر أحد أن يخدم سيّدَيْن، لأنّه إمّا أن يُبغض أحدهما ويحبّ الآخر، وإمّا أن يتبع أحدهما وينبذ الآخر؛ فأنتم لا تقدرون أن تخدموا الله والمال" (متّى ٢٤/٦). إنّما العائق في اللقاء مع الله ليس بالضرورة عائدًا إلى كثرة الخيرات بل إلى التعلّق بها فوق كلّ شيء، وكم بالأحرى إلى اعتبار البرارة والغنى الروحيّ نابعَيْن من الممارسات التقويّة لا من رحمة الله. عندها يصبح الصعيد الدينيّ محتجزًا في تتميم بعض الشرائع، ممّا يوهم المؤمن بقربه من الله، كما يفعل ذلك الفرّيسيّ الواثق من نفسه، والمكتفي بأفعاله وبصلاحه السطحيّ، فيحتقر الآخرين، بينما يقف العشّار بعيداً، قارعًا صدره طالبًا الرحمة وهو لا يجرؤ أن يرفع عينيه إلى السماء. لذا يطلق يسوع الحكم موضحًا أنّ العشّار نزل إلى بيته مبرَّرًا لدى الله؛ فمن يرفع نفسه ينخفض، ومن يخفض نفسه يرتفع (لوقا ٩/١٨–١٤).

هذا الوعي للحاجة إلى الله وإلى رحمته هو موقف الطفل، موقف الابن مع أبيه، يثق به ثقةً مطلقة ويُسلِم نفسه بكلّيّتها إلى محبّته ورحمته، لأنّ "من لا يقبل ملكوت الله كأنّه طفل، لا يدخله" (لوقا ١٧/١٨. راجع متّى ١٣/١٩–٢٤). الفقر الروحيّ يتّصل إذاً بالحِسّ البنويّ تجاه الله، بالرغبة في اقتبال عطاء الله بقلب منفتح ويَدَيْن فارغتين، حتّى من "الاستحقاق" الروحيّ، لأجل خدمة الملكوت.

ثالثًا: الفقر الاختياريّ وخدمة الفقراء

لا يحجب هذا البعد الروحيّ للفقر أهمّيّة الفقر الفعليّ على مثال يسوع، بقدر ما يعبّر هذا التخلّي عن أولويّة الملكوت وعن التجرّد الباطنيّ الحرّ لخدمة السيّد الواحد الأحَد. لذا نشهد، في كلّ جيل وفي مختلف الأمكنة، أناسًا أسخياء يتخلّون عن كلّ شيء في سبيل المسيح يسوع ويعتنقون الفقر الاختياريّ. يسمعون كلمة الربّ: "أترك كلّ شيء واتبعني"، ويثقون أنّ نجاح رسالتهم هبة إلهيّة مجّانيّة، فلا يأخذون للطريق عصًا ولا فضّة ولا ذهبًا (راجع متّى ٩/١٠) بل يتحلّون بالإيمان والرجاء والمحبّة. وباختلاف الواقع الاجتماعيّ تختلف مظاهر الفقر الاختياريّ وحاجات الرسالة، فيَقبل بولس بجمع التبرّعات للكنيسة الأمّ في أورشليم، بينما يفتخر بمجّانيّة حمله للبشارة (راجع ٢ كورنتس ٨ و ٩؛ أعمال ٢٤/٢١ و ١ كورنتس ١٨/٩). وليس ذلك احتقارًا لخيرات الأرض ولا استخفافاً بعطايا السماء، إنّما هو تعبير عن

وضع كلّ شيء في خدمة الإنجيل وفي خدمة المحبّة، لأنّ المؤمن والرسول الحقيقيّ يستطيع القول مع بولس : "تعلّمت أن أقنع بما أنا عليه، فأنا أعرف أن أعيش في الضِّيقة، كما أعرف أن أعيش في السِّعة، وفي جميع الظروف اختبرت الشبع والجوع والفرح والضيق، وأنا قادر على تحمّل كلّ شيء بقوّة الذي يقوّيني" (فيلبي ٤/١١-١٣).

هكذا عاشت الجماعات المسيحيّة الأولى بحسب أعمال الرسل (٢/٤٢-٤٨؛ ٤/٣٢-٣٥). فالبؤس والفقر المادّيّ والاجتماعيّ حالة إنسانيّة تستدعي التغيير والنّضال من أجل التغيير. والأمانة للإنجيل تتطلّب التزامًا في إحقاق العدالة الاجتماعيّة والانتباه لإخوة يسوع الصغار وخدمتهم في حاجاتهم الأساسيّة (راجع متّى ٢٥/٣٤-٤٦)؛ فعلى أعمال الرحمة هذه تُبنى مواقف الديّان العادل : " كلّ ما فعلتموه لأحد إخوتي هؤلاء الصغار فلي قد فعلتموه"؛ ومن خلال المحبّة للإخوة يظهر مقدار محبّتنا لله: " من كانت له خيرات الدنيا، ورأى بأخيه حاجة، فأغلق أحشاءه دون أخيه، فكيف تثبت محبّة الله فيه؟" (١يوحنّا ٣/١٧).

خاتمة، سواء كان في العهد القديم أم في العهد الجديد، يعطي الكتاب المقدّس المعنى الحقيقيّ للفقر والفقراء. بالإضافة للفقر الروحيّ المتماهي مع الانفتاح لعطيّة الله بالثقة والوداعة والتواضع، يجب ألّا ننسى الفقر العاديّ الذي يقتضي من المؤمن الالتزام العميق بأعمال الرحمة والأُخُوّة والمحبّة؛ فالفقير حبيب الله، لا بل يسوع بنفسه يهتزّ طربًا بالروح ويشكر الآب الذي يكشف أمور السماء للصغار، موصيًا تلاميذه: "تعلّموا منّي، أنا الوديع المتواضع القلب" (متّى ١١/٢٩).

الأخت ياره متّى
دكتوراه في اللاهوت والكتاب المقدّس

الأخت ياره متّى من راهبات العائلة المقدّسة المارونيّات؛ حائزة على شهادة الدكتوراه في اللاهوت والكتاب المقدّس؛ أستاذة في مادّة الكتاب المقدّس في المعهد الكاثوليكيّ في باريس، وفي جامعة القدّيس يوسف في بيروت وفي جامعة الروح القدس – الكسليك؛ لديها مطبوعات ومقالات مختلفة في مجال عِلم الكتاب المقدّس.